الرياض
الأحد ٢١ شعبان ١٤٢٦هـ - ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٥م - العدد ١٣٦٠٧

حضارة المدنية والتطوير

د. صالح عون الغامدي*

عندما نكتب عن شخصية الملك عبدالعزيز بصفة الشمولية أو الانتقائية فإننا نجد أنفسنا أمام قامة تحمل في طياتها ابعاداً ذات مدلولات تكاملية. فلم تعد الكتابة عنه في شتى الميادين كتابة عن شخص أو ملك أو قائد بقدر ما هي كتابة عن تاريخ أمة وشعب وسيرة ومنهج.

لقد امتلك زمام مبادرات عدة فكان المحارب الحكيم والمسالم القوي في تمسكه باسلامه واعتزازه بعروبته ودفاعه عن مظاهر التطور والرقي وعن المنهج الثابت المستمد من القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة، فتحكم في عواطفه وأقواله وأفعاله، يحب الحضارة في حدود المعقول والمدنية في حدود المقبول، يقول - يرحمه الله -: «يقول كثير من المسلمين يجب أن نتقدم في مضمار المدنية والحضارة.. وأن تأخرنا ناشيء عن عدم سيرنا في هذا الطريق، وهذا ادعاء باطل، فالإسلام قد أمرنا أن نأخذ ما يفيدنا ويقوينا على شرط أن لا يفسد علينا عقائدنا وشيمنا.«

ولعلنا نستشف واقعاً مفروضاً يحلق بنا في آفاق أبعد وأشمل يتمثل في أن المؤسس يحرص على الاستفادة من اللب لا القشور ومن التقدم لا التخلف ومن المدنية لا التقوقع، فهو يؤكد بأن الإسلام دين شمولية ولا بد من الاستفادة من كل هذه الإيجابيات مع عدم المساس بالثوابت والمنهج الإسلامي القويم الذي هو طريق النجاة والشموخ والوحدة المعبّرة عن القوة مع الإشادة بدعوته إلى الاتفاق والاعتصام بحبل الدين، والسعي لما يحفظ قوة المسلمين ضد كل أعداء الإسلام والسلام.

إن منطق المؤسس يقوم على التوازن بين القول والفعل فهو يفعل ثم يؤكد أفعاله بالأقوال، وأحياناً يدعها تؤكد نفسها وتفرض ذاتها وتثبت جذورها وتعطي أُكلها، وقد فرض الملك عبدالعزيز رأيه صراحة عندما قال: «يجب أن يعتبر المسلمون من حالتهم اليوم فإنهم لم يصلوا إلى ما هم عليه الآن إلا من كثرة أقوالهم وعدم أفعالهم.. إلا أن العمل أساس النجاح.. وان العقيدة الصحيحة هي أساس الفلاح.«

لقد اهتم بالرعية وحرص على أن يعيشوا كرماء في دولة أساسها العدل ودستورها القرآن ومنهجها التقدم وديدنها المساواة، حتى أننا وغيرنا عندما نريد استيعاب توجيهاته أو خطاباته أو أوامره نصاب بالذهول لمقدرته الهائلة على مسايرة العصر والأخذ بكل جديد، لقد كان بحق أشمل من الديمقراطية وأكبر من الشعارات البراقة يدعو الكل إلى المشاركة الفاعلة في بناء الوطن - وطن الكل - كما حرص على عدم إتاحة الفرصة لاعتداء القوي على الضعيف، فأمام عدالته ونزاهته الكل سواسية، لقد فتح باب الشكاوى ضد الظلم وحتى يضمن وصولها إليه هدد رجال البريد في عدم إيصالها، وزيادة في الحرص كتب إلى كل رعيته كتاباً في غاية الأهمية «على كل فرد من رعيتنا يحس أن ظلماً وقع عليه أن يتقدم إلينا بالشكوى.. وأن يبعث بها بطريق البرق أو البريد المجاني على نفقتنا، وعلى كل موظف بالبريد أو البرق أن يتقبل الشكاوى من رعيتنا ولو كانت موجهة ضد أولادي أو أحفادي أو أهل بيتي، وليعلم كل موظف يحاول أن يثني أحد أفراد الرعية عن تقديم شكواه مهما كانت

قيمتها، أو حاول التأثير عليه ليخفف من لهجتها أننا سنوقع عليه العقاب الشديد.. لا أريد أن أسمع عن مظلوم، ولا أريد أن يحملني الله وزر ظلم أحد أو عدم نجدة مظلوم أو استخلاص حق مهضوم.«

رحم الله الملك عبدالعزيز، وحفظ لهذه البلاد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز الرجل الذي يضرب يوماً بعد يوم روائع الأمثلة في السعي بهذه الدولة إلى مصاف الدول الكبرى، والحرص على الرقي بشعبه في أسلوب مثالي، ومبادئ إسلامية حقيقية تتجاوز أية دعايات هوجاء تحمل في طياتها إيجابيات وسلبيات أكثر، إن سياسة الباب المفتوح لخادم الحرمين الشريفين وولي عهده لسياسة حكيمة ومثالية ورائعة.

*أستاذ الدراسات العليا

بجامعة الملك خالد